

دراسة ضرورة «القرار المكين» للحياة الأبدية في ضوء الهندسة الوجودية للإنسان

«القرار المكين» شرطاً لسلامة الولادة الأخروية: دراسة دوره في تكامل الروح

يمرّ الجنين، منذ استقراره في رحم أمه وحتى ولادته، بمراحل دقيقة وحساسة من النمو، وتتوقف سلامته عند ولادته إلى حدّ كبير على طبيعة البيئة التي نشأ فيها. فإذا لم تكن هذه البيئة آمنة ومستقرة ومهيأة لنموه، فقد يولد الطفل وهو يحمل أضراراً قد يصعب، بل قد يستحيل أحياناً، تداركها. هذه الحقيقة لا تقتصر دلالتها على الجانب البيولوجي فحسب، بل تكشف لنا عن حقيقة أوسع تتعلق بوجود الإنسان. فالانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة يقوم، من هذه الزاوية، على المنطق نفسه الذي تقوم عليه الولادة. وكما أن رحم الأم هو البيئة التي يتكوّن فيها جسد الإنسان، فإن الدنيا هي أيضاً بمثابة رحم تتشكل فيه هويته الأبدية. ومن هنا تبرز أهمية «القرار المكين» في هذه الرحلة؛ فهو يؤدي دوراً أساسياً في ضمان سلامة الولادة الأخروية. فالروح، إذا لم تستقر في «موضع راسخ وآمن»، قد يتعرض نموها للاختلال، وقد تظهر فيها نواقص وجودية ترافق الإنسان إلى عالم ما بعد الموت.

البحث في حقيقة «القرار المكين» في مسار النمو الأخروي

إذا نظرنا إلى انتقال الإنسان إلى الآخرة من خلال نموذج الولادة، أمكننا أن نتصور ست حالات مختلفة لهذه الولادة: ولادة سليمة، وولادة سليمة قوية، وولادة ضعيفة، وولادة مريضة، وولادة ناقصة، وولادة معاقة. ترتبط كل واحدة من هذه الحالات ارتباطاً مباشراً بجودة حياة الإنسان خلال الفترة التي يمكن تشبيهها بالرحم الأخروي، أي حياته في الدنيا. فعندما نتحدث عن ولادة سليمة أو سليمة قوية، فالمقصود أن «الطفل الروحي» قد اكتسب خلال حياته الدنيا جميع المقومات اللازمة للحياة في العالم الآخر، وأنه ينتقل بها معه إلى الآخرة. أما إذا افتقد بعض هذه المقومات، فقد تكون ولادته الأخروية مريضة أو ناقصة.

وفي هذا السياق، يظهر مفهوم «القرار المكين» بوصفه مفتاحاً لفهم كيفية حماية الإنسان من الأخطار التي تهدد نموه. يقول الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾^١

^١ سورة المؤمنون، الآية ١٣

تشير الآية بوضوح إلى أن النطفة، لكي تواصل مسيرتها نحو الخلق الكامل، تحتاج إلى أن تستقر في موضع آمن ومحض. والمقصود بالاستقرار هنا أن تكون في بيئة تحميها من الاضطرابات والعوامل التي قد تفسدها أو تؤدي إلى نموها بصورة غير سليمة. والأمر نفسه ينطبق، وفق هذا التصور، على حياة الإنسان في الدنيا؛ فهذه الحياة هي الرحم الذي تتشكل فيه شخصيته ووجوده الأبدي. وإذا لم يجد الإنسان فيها «قرارًا مكينًا» يستقر فيه، فإن المشكلة لا تقتصر على توقف نموه الروحي، بل إن طاقاته واستعداداته الفطرية، بدل أن تنمو وتزدهر، قد تُستنزف شيئًا فشيئًا في مسارات منحرفة.

ارتباط النمو بالاستقرار

تكمُن ضرورة الوصول إلى «القرار المكين» في أن الإنسان بطبيعته كائن معرض للضرر. فكما يحتاج الجنين في رحم أمه إلى ملاذ يحميه من الضغوط الخارجية، تحتاج روح الإنسان في الدنيا أيضًا إلى بيئة تحمي هويته من سيل الأحداث والتغيرات البيئية المتقلبة. ومن لم يرتبط في الدنيا بمثل هذا الموضع الراسخ، فإنه يظل عرضة لأضرار تمس بنيته، حتى لو نشأ في أسرة ميسورة أو في ظروف مواتية للنمو. ذلك أن الأساس الحقيقي لسلامة الإنسان لا يكمن في الظروف الخارجية للحياة، بل في صلته الوجودية بـ«القرار المكين». ويكشف هذا التحليل أن عدم معرفة الموضع المناسب، أو عدم الاستقرار فيه، يعني ضياع الفرصة الذهبية للنمو. وليس من شأن هذا عدم الاستقرار إلا أن يؤدي إلى «إجهاض روحي» أو إلى ولادة أخروية محملة بالأمراض. وفي الواقع، فإن كثيرًا من السلوكيات غير السوية والطرق الخاطئة التي يختارها الإنسان في حياته الدنيا تنشأ من خروجه عن «موضعه الراسخ» وتعرّضه للأضرار الناجمة عن البيئة المحيطة. وأولى خطوات معرفة هذا الموضع هي العودة إلى السؤال الأساسي للخلق: لماذا خُلق الإنسان؟ فعندما يدرك الإنسان الغاية من خلقه، يبدأ بذلك مسار الاستقرار.

نمط الحياة وإدارة الرحم الدنيوي

أهم ما يستطيع الإنسان القيام به لضمان سلامة ولادته الأخروية هو إدارة «أسلوب حياته» باعتباره وسيلة لتنظيم ظروف الرحم الأخروي. ويتحقق ذلك من خلال تبني أسلوب حياة يرسخ «القرار المكين» لروحه.

ولا يعني هذا الاستقرار مجرد فكرة أو حالة داخلية، بل يعني أن يرتب الإنسان اختياراته وعلاقاته وسلوكياته وأفكاره بوعي، بحيث لا تتعرض ما تتلقاه روحه من معارف ونماءات روحية للاضطراب. فالإيمان، إذا لم يكن راسخًا ومستقرًا، يتآكل مع مرور الوقت وتحت وطأة تقلبات الحياة، حتى يضعف ثم يزول.

لذلك ينبغي للإنسان الذي لا يزال في مسار النمو أن يصمم أسلوب حياته حول الحفاظ على الإيمان وترسيخ استقراره. فأي تغيير في أسلوب الحياة يؤدي إلى إضعاف هذا الاستقرار يشبه إدخال حالة من عدم الأمان إلى البيئة التي ينمو فيها الجنين الروحي، أي القلب السليم.

وهنا تكمن نقطة الاختلاف بين أسلوب الحياة الإنساني وغيره من التوجهات؛ فقد تقود بعض التوجهات إلى تحقيق الرفاه الدنيوي، لكن الأسلوب الوحيد الذي يقود إلى «القرار المكين» هو الذي يضمن سلامة الحياة بعد الموت. ومن هذا المنظور، يصبح كل فعل يقوم به الإنسان بمثابة عملية بيولوجية أخروية؛ فإما أن يسهم في تقوية القلب السليم، وإما أن يدفع الإنسان خطوة أخرى نحو عجز أبدي.

مكانة الإمام المهدي؛ البيئة الآمنة للوجود

في التحليل النهائي لهذا النظام التكويني، هناك حلقة مفقودة، من دونها يبقى مسار النمو الأخروي ناقصًا. هذه الحلقة هي صلة الإنسان بالإمام المهدي. فالإمام المهدي ليس مجرد مرشد للإنسان، بل هو أهم «رحم وجودي» يحتاج الإنسان إلى أن يعيش في فضائه. ومن دون هذه الصلة، لا يمكن للإنسان أن يقول إنه استقر في «القرار المكين». والأهم من ذلك أن الله لا يكون للإنسان «إلهًا» من دون وجود الإمام المهدي؛ فصلة الإنسان بالله تحتاج إلى إطار وجودي تنتزل من خلاله الهداية والفيض الإلهي.

وعلى كل إنسان أن يبدأ من «ذاته»، وأن يصلح علاقته بإمام زمانه. هذه المصالحة تعني الدخول في المجال التربوي لوجود الإمام. وإذا لم يصل الإنسان إلى هذه البيئة، فإنه يظل عرضة للسقوط، مهما كان مقدار عبادته أو أعماله الصالحة، ويبقى في حالة أشبه بالطفل حديث الولادة، ضعيفًا وعرضة للأذى. فالإمام المهدي هو «القرار المكين» لروح الإنسان؛ فهو البيئة التي توفر لها الأمان اللازم للنمو، وتحول دون أن تضيع استعداداتها وقدراتها في مسارات زائفة.

وفي النهاية، تعود جميع تحديات الحياة الدنيا إلى سؤال واحد: هل يعيش الإنسان في حماية هذا الرحم الوجودي أم لا؟ فالإجابة عن هذا السؤال هي التي تحدد مدى سلامة الإنسان عندما يعبر البرزخ.

إن الولادة الأخروية ليست حدثاً عشوائياً، بل هي النتيجة المباشرة لجودة استقرار الإنسان في الحياة الدنيا. فجميع مراحل النمو، من معرفة الغاية من الخلق، إلى إصلاح أسلوب الحياة، وصولاً إلى الصلة الحيوية بالإمام المهدي، تندرج تحت منطق واحد: ضرورة الاستقرار في القرار المكين. وهذا الاستقرار هو الشرط الأساسي للوقاية من الولادة المريضة في الحياة الأبدية. فالإنسان في هذه الحياة هو، في الحقيقة، «قلب سليم»، ويتوقف مصيره الأبدي على جودة الرحم الدنيوي الذي ينمو فيه. وكل ما يبعده عن هذا الموضع الراسخ يدفعه نحو الهلاك أو نحو أضرار تمس وجوده. وفي النهاية، فإن الذين يدركون هذا النظام وينظمون حياتهم على أساس هذا الاستقرار، هم وحدهم الذين يمكنهم أن يأملوا في أن يولدوا عند انتقالهم إلى الآخرة سالمين، كاملين وأقوياء، وأن يبدأوا حياتهم الأبدية.